المنار
١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

إنما يعمر مساجد الله من يؤمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق ﴾

﴿ مصر في يوم السبت غرة محرم الحرام سنة ١٣١٩ — ٢٠ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠١ ﴾

الانتقاد

« من مقالات مولانا الاستاذ الحكيم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده »
« مفتي الديار المصرية »

﴿ ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم ﴾

الانتقاد نفثة من الروح الالهي في صدور البشر تظهر في مناطقهم سوقاً للناقص الى الكمال وتنبيهاً يزعج الكامل عن موقفه الى طلب الغاية مما يليق به . الانتقاد قاصف من اللائمة تتنفس عنه القلوب وتنفتق به الالسنة لتقريع الناقصين في أعمالهم ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم

جعل الله للحياة قواما وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلي سلطان وجوده العقل فان صلح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون وتم امره . ان الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين احدهما له والثاني له وعليه أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه

الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور من منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه الى الهرب ، وكل منازل العقل سعود الا ادناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الادنى دنوٌّ من الكمال ، غير ان ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل متتبع الكمال الى مقام الا ويرمى بطرفه الى ابعد منه . ومساقط العجز وبيئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها افاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل كلما التفت اليه راعه هول منظرها فتحفزّ عنها ، الى منجاه منها ، ولا يزال يزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من رفرف السعادة الاعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختّارة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدرى ان بها هلكتها وفيها منيّتها ، فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنثور ويَنبَى عن الفخ المنصوب فاذا سقط للالتقاط وقع فى يد الحابل أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ولا يشعر بما أعد له صائده فاذا وثب عليها اتاه الصائد من مقتله ، وأعجله عن مأكله ،

لهذا وكل الله بالعقل منبهاً لا يغفل ، وحسيباً لا يهمل ، وكالئاً لا ينام يزعج الواقف ، ويحثحث المتريّث ، ويمسك الراجف ، ما سكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به ان ما تطلب امامك . ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى ما يضره ، الا صاح به : تسمت الجدود ، وأضرعت الخدود ، فتقض من سيرك ، وقوم من سيرك والا فالذل مقبلك ،

والملكة مصيرك . ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ينبث فى الفؤاد ثم يتجلى فى البيان ، على أسلة اللسان ، فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، «فطرة الله التى فطر الناس عليها» أودع فى كل ناطق بصراً بشأن غيره أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ومكن كلاً من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان ابصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين اقساماً فمنهم ناظر الى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة ، ومن هذا القسم المفرطون فى الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيوب يرؤون المساآت ، ويسكتون عن الحسنات ، وفيهم الحساد ، واهل الاحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال نُبله ، ويلزمون النقص ويله ، وهؤلاء فى أعلى المنازل وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله * ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويعرفون بما لا يعلمون ، وهم فى أخس المنازل . وليس فى الناس الا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه . وما جعل الله بشراً يسلم منها ويحرم من بعضها فكأنها التى قال فيها « وان منكم الا واردها » وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى ينادى الكاملين ان يستزيدوا ، والناقصين ان يستجيدوا ،

هل لجاحدٍ ان يصغّر قدر هذا الحسيب على أيّ وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل ان ينكر حكمة الله فى تقييضه لنا ؟ او لواهم ان يذهب الى انه ليس من نظام الفطرة ؟ وانى أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك وانت

غربي مثلاً ان ملك الصين غدر بأحد أوليائه أو استصفى أموال رعيته او كلفهم ما لا يطيقون احتماله او اهمل فى مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها اعداؤها او جبن عن دفع حادث ألم به وكان يستطيع دفعه ألا ترى من قلبك امتعاضاً عليه ومن نفسك ازراء بعمله وفى لسانك لهجة بلومه وهو منك على بعد المشرقين ؟ ولئن وصلت اليك روايات عدله ورعايته حقوق بلاده وحفظه لذمامه وجدت اليه من فؤادك ميلاً ومن رأيك لعمله استحساناً ومن لسانك عليه ثناء

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عندما تنظر فى تاريخ لمن سبقك فان مثّل لك النظر فضلاً فى سيرة ، أو خزية فى جريرة ، ألست تجد من ميلك انبساطاً الى فواضل الغرر ، وانقباضاً عن مخازن العرر ، ثم انطلاقاً الى نشر ما وجدت ثم رأيت عضداً منك لاحدهما كأنه قائم يستنصر فانت تنصره ، وتعيظاً على الآخر كانما يدعوك لعونه فانت تخذله ،

لا جرم ان النقد ناثرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين وكل نقد فحشوه لوم حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير وازعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الاعياء فكأنى وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا ، ويا أيها المبرزون اركضوا ، واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى . تلك اقلام الحق ، فى السنة الخلق ، لا يصم عن نداءها الا أصم ، ولا ينبي عن انذارها ألا أبهم ،

على ذلك قام النظام الانساني فلولا الانتقاد ما شب علم عن نشأته ، ولا امتد ملك عن منبته ، أترى لو اغفل العلماء نقد الآراء واهملوا

البحث فى وجوه المزاعم اكانت تتسع دائرة العلم ، وتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم المحق من المبطل ؟ اولو اغمض الاعداء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر فى قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقارع النقد ، اكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، او تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلاً ، والنظام خللاً ، تلك سنة الله فى الاولين ، وهى كذلك فى الآخرين ،

فالمغبوط فى حاله من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون انفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما ينبههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نفائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عند هؤلاء اجود فانهم يرفعون للمعايب اعلاماً بينة حتى لا تعود فيها شبهة لناظر واجبى بالعقل ان لا يمج من الانتقاد شيئاً حتى اكاذيب اهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة . فان الباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح تقام فى الثغور زمن السلم حذراً مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها واقل ما يكون من العاقل فيها ان يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا . فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتاً كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقاً ، والباطل حقاً ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق فى ثلب غيره فقد افسد نفسه لصلاح عدوه ولله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير فلولاهم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا

حظائر القدس . هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عبثاً «نعوذ بالله» فوقَروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا اصابعهم في صماليخهم [1] من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وامره ، وضربوا بينهم وبين اهل النقد حجباً ، واقاموا دونهم استاراً ، وخيّل لهم الجهل ان صممهم عنه ، يقيهم منه ، وان قبوعهم في أُهَب الغفلة [2] يدرأ عنهم سهام اللوائم كأنهم لا يعلمون ان ذلك وقوع في اشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ظناً منه انه متى اغمض عن طالبه اغمض الطالب عنه فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عمى عن شؤونهم وتخبط في اعمالهم قد لزموا خطةً من الهون لو ابصر عقلهم بعض اطرافها لماتوا جزعاً من هول ما فيها . كل ذلك واسلات الألسن واسنة الاقلام لا تألوا في تقريعهم بل وصوت الحق الصريح ينادي بهم من عماية ضمائرهم بئس ما اشتريتم لانفسكم لو كنتم تعلمون . وليُهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة من هذا بل لا يشعرون

اولئك الذين ختم الله على سمعهم وطبع على قلوبهم فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية فهم اموات الارواح ، مضطربوا الاشباح ، ولا تنشق عنهم قبور الحقول حتى ينشرهم الله في حياة اخرى يخضعون فيها للأحكام الكونية ويعملون على السنن الالهية ، فلينتظروا انا معهم من المنتظرين

---

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها (٢) الاهب بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ او أعم